



بقلم الاب لامنس اليسوعي



ما اوهى حياة الكتب ! فانها وديعة الورق ؛ وما اقرب مادة الورق من التآلف ! ان المحافظة على الكتب تقتضي مراقبة لا تعرف الملل لتحميمها من العثة والنار . ومن ذلك نفهم حكمة البابليين واليونان والرومان في نقشهم على الآجر ، او الحجر ، او النحاس ، الكتابات التي كانوا يقصدون حفظها على مدى الدهر .

ذكرنا اعداء الكتب ولم نذكر الدّم اعني الانسان . هذا ما يشهد عليه التاريخ ، ويا له من تاريخ مفعج ليس فقط في العصور الخوالي ، ولكن في عصرنا ايضاً عصر النور . حبنا الاشارة الى احراق مكتبة لوقان في شهر آب ١٩١٤ اذ اتلف فيها اكثر من ٢٠٠,٠٠٠ كتاب مطبوع او مخطوط . وقد حدث ذلك الحريق لا قضا ، وقدراً كما قد يحدث في الحروب ، ولكن تعمداً . وقد حكمت معاهدة فرساي على من وقعت عليهم تبعة هذه الجريمة بالتعويض عنها ، ان يكن من ثم سبيل الى التعويض عن امثال هذه الاضرار ! نشرنا في المشرق (٢٠ [١٩٢٦] ١٠٧) مقالاً على اتلاف مكتبة طرابلس عندما فتحها الصليبيون ، واطهرنا ، في حقيقته التاريخية ، ذلك الحادث ، وكانوا قد ضخموه وسخّوا وجهه حتى اخذكونا . وما هو الا قصة بضعة آلاف المجلدات كان آل بني عامر الشيمون قد جموها ليذيعوا بها مذهب البدعة الامامية . فاذا بذلك المدد قد بلغ الثلاثة ملايين يا للجهل ! ايدري الذين اذا امرت تلك الحكاية ان ثلاثة ملايين من الكتب عزيز وجودها حتى في مكاتب المواصم

الفرية المؤنسة منذ الاجيال . بيد ان مجموعة طرابلس الشيعية لم تكذب تبلغ  
الحسين سنة من عمرها ا

ان قراءتنا وقفوا على المناقشات اللاذعة التي دار محورها على مشكل تاريخي  
آخر وهو نسبة احراق مكتبة الاسكندرية الى الخليفة عمر بن الخطاب . في  
نظرنا ان البرهان القاطع على ذلك الاتلاف لم يثبت بعد . على ان الخبر ، وان  
كان اسطورة من الاساطير ، فلا بد من تفسير السبب الذي دعا عبد اللطيف ،  
وابن القفطي ، والمقرزي ، وغيرهم من قدماء المؤرخين الاسلام الى اشاعته .  
لعلهم ظنوا نسبة احراق مكتبة الاسكندرية الى عمر مرقاةً لكرامته ، ولا  
وسيلة ابلاغ منها الى غرضهم وهو الاشادة بغيرة عمر على الاسلام . ولعل ابن  
خلدون رأى رأيهم فنجا مناهم ؟ جاء في المقدمة<sup>١١</sup> « قان علوم الفرس الذي  
[ كذا ] امر عمر رضي الله عنه بحرقها عند الفتح » وكان ابن خلدون قد دهش  
من قلة الكتب الفارسية القديمة فلم يتردد بنسبة فقدانها الى الخليفة عمر . لا  
نعرف اين استقى المؤرخ الشهير مصادره ولا نعرف هل اخذ عنه هذا الخبر  
غيره من المؤلفين . على ان تاريخ البلاد الاسلامية طافح بمجاذب النكبات التي  
ذهبت فيها مكاتب برمتها ضحية اغراض البشر الردية .

\* \* \*

من اشهر تلك النكبات ما حل في بغداد ، الشهيرة ليس فقط بكتابتها  
ولكن بمخاضاتها الدينية ايضاً ، اذ احتك في ميدانها منذ القرن الحادي عشر  
السنون بالشيعة اولا ، ومن بعدهم الحنبلية بسائر المذاهب . وربما عدوا  
الى السلاح لفض المشاكل ولم يكن من النادر ان يهاجم احد الفريقين كتب  
الفريق الآخر .

وقد حفظ كتاب الف ليلة وليلة صدى تلك الحوادث اذ روى ان ابواب  
بغداد كانت مغلقة ليلاً لمنع اصحاب البدع من اتلاف الكتب وطرحها في  
دجلة ، مما يدل على ان الحوادث لم يكن من الامور التي لم يُسمع بها قط ا

وفي سنة ١٠٥٦ عاث عسكر السلطان البلجوقي 'ظفرول بك' فساداً في عدة مكاتب بغدادية واحرقوها . واتلف التتر غيرها من المكاتب على ايام هولانغو ، وابدوها فلم يبق لها اثر .

وان ما يروى عن مكتبة غزنة<sup>(١)</sup> (اقغانستان) يؤيد كلامنا بطل آخر . فانها اُحرقت على يد جنود الامير حين سنة ١١٥٥ عند تدميرهم المدينة .

وستين قبل ذلك العهد حرق الاتراك<sup>(٢)</sup> الى رماد مكتبة نيسابور . وسواها . اكان الفاترون في النضال ستين ام شيعين فانهم قلما قفوا النفس الأمانة بالسوء . ومنعوا عن احراق كتب خصوصهم . وجرت احكام هذه السنة القاسية بمكتبة حلب على ايام الي العلاء المرعي ، يوم عاشوراء . وعلى هذا المنوال دُمرت مكتبة ازي في بلاد فارس .

وقبل ذلك العهد بستين امر السلطان محمود الغزنوي باحراق « كل ما كان في علم الكلام »<sup>(٣)</sup> . فضلاً عن الكتب التي اعلنت الريبة في صحة تفسيمها . اعني بها كتب « الروافض واهل البدع » .

وكان للاتراك والتتر النصيب الاوفر في تلك الفظائع . فهما بنا نرى الآن هل كان المسلمون في سائر البلاد ارحب صدرًا واكثر اكراماً للمسترجبات العقلية ؟

\*\*\*

لقد كتبوا ما كتبوا في هذه الآونة الاخيرة تعظيماً لما بلتته الاندلس من علو منزلة العمران . حتى ان البشرية لم ترتق في زعمهم الى مثل ذلك النجاح الفكري والمادي . يا لها من بيئة سعيدة لا خطر فيها على الكتب من فساد المفسدين . ولكن لا بد من القول ان الواقع كان خلاف الاوهام . ليس بلد من البلاد حفظت له قواريع العرب من احراق المكاتب ما حفظته للانندلس . وها ان الاستاذ

(١) ابن الاثير ، التاريخ الكامل ، ٩ ، ٢٤٦ ، ١٠ ، ٥

(٢) ابن الاثير ، التاريخ الكامل ، ٩ ، ٢١٧

(٣) ابن الاثير ، ١١ ، ١٢٠

(٤) ياقوت : ارشاد الاربيب ، ٣ ، ٢١٥

رييرا<sup>١</sup> خص مكاتب الاندلس الاسلامية واصحابها بدرس مهيب وبين ما كان للكتب من المحل في شغف الناس وولعهم ثم قال : « في الاندلس ، سحابة قرون عدة ، كان الوقوف على حريق المخطوطات العربية من الذمما تتمتع به العامة في اعيادها وافراحها<sup>٢</sup> . »

ولما رسخت قدم المذهب المالكي في الاندلس وطرد المذهب الاوزاعي ، الذي كان قد دخل البلاد مع العرب السوييين ، استثم العلماء المالكيون رائحة البدع في كل مكان ؛ فحركوا الشعب فصار ينادي كل مجدد حقيقي او مزعوم ويجرق كعبه . ومن الذين ذهبوا ضحية تلك الحرة ابن مسرة الفيلسوف وبعده ابن كليب<sup>٣</sup> المتهم بتعليم « القدر » ، احرقت كعبه بعد موته في ساحة البلد . وكانت الحكومة تتبع تلك النظائع ولا تجرؤ على مقاومتها . احب الوزير المنصور المؤلفات الفلسفية وحرص كل الحرص على اخفائها . وكان للسلطان في عزه مكتبة بلغ عدد مجلداتها على ما يقال ٤٠٠,٠٠٠ فلم ينجها من شر هذه الاعمال البربرية . لان المفتشين دخلوها ، واحرقوا منها عدداً وافراً في محضر من الوزير المنصور ، وقد اضطرره الى مساعدتهم على اتلافها . ولم يبقوا الا على ما لم يجدوا فيه شبهة من كتب الطب والحجاب والشريعة وغيرها .

ولما استولت دولة المرابطين على الاندلس ، كثرت حركة التدمير ، فاحرقت مؤلفات الفلاسفة وفيها كتب النزالي الذائع الصيت . وكذلك جرى في مكاتب عديدة<sup>٤</sup> . ثم غلب المرحدون المرابطين فاخذوا باحراق كتبهم ، ودارت الدائرة على كتب المذهب المالكي : حملوها اجمالاً على الرواحل ، ووجهها الى فاس في سراكش واحرقوها في مجتمعات الناس .

في السنة ١٥٤٢ حل فاس رجل بلجكي اسمه نقولا كلينار ، وكان يحسن العربية وهو مشغف بها ، ومماً لفت نظره في المدينة عدم وجود المكاتب وندورة المخطوطات ، وعددها اقل من القليل ، فان المؤلف الشامل يضع

1, 220. (٢) *Disertaciones y opusculos*, I, 181. etc. (١)

(٣) راجع القرشي : تاريخ علماء الاندلس (117) ، n° 120, p. 120 (Ed. Codera)

(٤) ابن ابار : كتاب النكسة لكتاب الصلة (Ed. Codera) II ٥٦٧ ٣

مجلدات كان وجوده بكماله مستحيلاً.

وكانت دولة المرحدين قد رضيت على ابن رشد ، فانقلب الشعب الاندلسي عليه وعلى مؤلفاته . وهذا الانقلاب يدلنا على سبب قلّة ما حفظ من مخطوطات ابن رشد . واتفقوا ما اتفقوا من الكتب حتى نفذت خزائنها . ولذلك لما اراد سلاطين بني مرين تأسيس مكتبة في فاس قصدوا الى الملك سانشر<sup>(١)</sup> الرابع ، فادرس اليهم الامير المسيحي من بلاده ثلاثة احوال من المخطوطات العربية . ذكرنا المؤرخ ابن الأبار وقائنا القول ان كسبه قد أحرقت في ساحة تونس الغرب . فهل من سييل بعد الى السؤال عن مؤلفات مسلمي الاندلس ؟ او ليس الاحرى بنا ان ندهش لبقا . جزء منها بعد تدمير المدرسين !

فاذا ، شاء البعض او أبوا ، لا بد من الاقرار ان البيئة الاندلسية لم تكن ارحب صدرًا من غيرها بالمتوجات العقلية . ومأ يأسف له العلم كثيراً ان الكتب كانت تذهب ضحية تلك الايام . وسواء أكان المالكين غاليين او منلوين ، ففلى الكتب كانت تحمل نعمة الناقين .

وقبنا نحن في هذا الصدد ، لا بد من ذكر القاهرة حيث انشأ الخلفاء الفاطميون مكتبة نفيسة . لقد نالها ضرر عظيم في الثورات المعكرة التي اضطرت نيرانها في اواخر الدولة الفاطمية . فأتلف جزء من الكتب ، وجزء آخر ظلّ محفوظاً الى ان ملك مصر صلاح الدين . فقبض للسلطان الكردي الاجهاز على تلك المكتبة الشهيرة : اعطى قسماً منها كاتبه القاضي الفاضل ، واصر بعرض الباقي في السوق بالمزاد . وطال بيعها سنين . . .

فتأمل واعظم بالكارثة ! . واعلم ان صلاح الدين عامل مكاتب سورية المعاملة ذاتها . حتى قال بعضهم ان عبد اللطيف المعجب بصلاح الدين كثيراً اختلق خبر احراق المكتبة على يد عمر ، عذراً لسلطانه ، وذمب مذهبهم المحروم كازانوفا<sup>(٢)</sup> . ولكن ، صح الخبر او كذب ، فليس فيه ما يعرود بالتعزير على صلاح الدين ولا على عبد اللطيف .

(١) راجع روض القرطاس ( éd. Tornberg ) ص ١٨

(٢) Académ. Inscriptions et belles-lettres, 1923, p. 163-71 (٢)